"تجميـــــع تاريـــخ الجزائـــر الثقـــافـــــي
أبو القاسم سعد الله

بقـــلـــم " ألان كريستيلو"
أستاذ بجامعة إداهو، الولايات المتحدة الأمريكية

تر:محمد الصالح بكوش
جامعة الجزائر.

صـــدر هـــذا الـــمقال فـــــي جـــريدة أمـــــريكـــية عنـــوانها((ISIM NEWSLETTER) لشهر ماي سنة 2000، تحت عنوان إصدارات، وعنوان جانبي: مراجعة كتاب، بقلم ألان كريستيلو (Allan CHRISTELOW) وهو أستاذ التاريخ بجامعة إداهو بمدينة بوكاتلو، ولاية إداهو، الولايات المتحدة الأمريكية. وهو مؤلف كتاب: *"المحاكم الشرعية الإسلامية ودولة فرنسا الاستعمارية في الجزائر"* (Muslim Laws and the French Colonial State in Algeria, Pinceton, 1985) **وكتاب:** *هكذا كان يحكم الأمير عباس: قضايا مختارة من المجلس القضائي لأمير كانو*

(Thus Ruled Emir Abbas :Selected Cases from the Emir of Kano's Judicial Council, Michigan State, 1994).

عانى الأستاذ أبو القاسم سعد الله المدرس بجامعة الجزائر، وهو يمر بأحد المطـــارات ســـنة 1988، أبشع كابوس يشهده عالِم، إذ فَقَدَ محفظة تحوي مخطوطاً يكاد يكون تاماً وتعـــاليق علميـــة ووثائق يصعب تعويضها، ويمكن أن تؤوَّل هذه الحادثة بصيغة مجازية ككارثة [1] بالنســـبة لموضـــوع الدراسة، وهو تاريخ الجزائر الثقافي. وعلى نطاق أوسع بكثير تسبب الاستعمار الفرنسي في كارثـــة كانت تُعدُّ محتملة الرسوخ تعلقت بالتراث الثقافي العربي الإسلامي في الجزائر، ففي الهجمات الفرنسية الضارية الأولى على الجزائر في ثلاثينيات القرن التاسع عشر أُتلف العديد من الوثائق والمخطوطـــات، فبعضها لاقى هذا المصير دون مبرر إلا أنّ الجنود الفرنسيين وجدوها ملائمة لإشعال غلايينـــهم [2]. وإن مصادرة الفرنسيين لأملاك الوقف الإسلامية في المناطق الحضرية جعل المؤسسات التعليمية عالـــة على الاعتمادات المالية القليلة التي تمنحها السلطات الاستعمارية، وإنّ امتداد اشتعال الثورة من سنة 1954 إلى سنة 1962 قرع أيضاً ناقوس الخطر لأنّ المستوطنين المقاتلين في صفوف المنظمة العسكرية السرية [3] استعملوا مهاراتهم في إحراق المكتبة الوطنية[4] ولأنه تمّ إتلاف أو تبديد مجموعات الكتب الخاصة والدوريات ونقل الأرشيف برمته إلى فرنسا.

ونظراً لأهمية هذا المقال نقوم بترجمته من الإنجليزية إلى العربية حتى يتسنى لقراء اللغة العربية الاطلاع عليه والاستفادة منه. وفي ما يلي الترجمة:

لا تُعدُّ مهمة تجميع مواد التراث الثقافي الجزائري مهمةً مستحيلة على الإطلاق على الرغم من كل ما حدث، بينما تُعدُّ بالنسبة للأستاذ سعد الله مهمة مفروضة عليه، فهكذا استأنف الكتابة وبعد عشر سنوات تقريباً من كارثة المحفظة نشر مصنفاً يتكون من تسعة مجلدات يحمل عنوان "تاريخ الجزائر الثقافي" بدار الغرب الإسلامي، وهي دار نشر ببيروت متخصِّصة في نشر الكتب حول المغرب العربي.

هـــــدف الكتـــــاب:

يُعدُّ هذا الكتاب موسوعياً يلم بمظاهر الثقافة الجزائرية من تفسير القرآن والشريعة إلى الفنون الجميلة والموسيقى، وتظهر أجزاء عديدة العادات الإسلامية المتعلقة بحياة العلماء. ويشمل المجلدان الأولان الفترة الممتدة من سنة 1500 إلى سنة 1830، أي من الفترة التي سبقت العهد العثماني إلى بداية الاحتلال الفرنسي، وتشمل المجلدات الستة الموالية عهد الاحتلال، ويتضمن المجلد الأخير فهرساً شاملاً.

يعالج كتاب **"تاريخ الجزائر الثقافي"** مجالاً واسعاً، فهو يُلِّـــم بأشـــهر العلماء المسلمين الجزائريين والزعماء الدينيين وبأصغرهم شأناً، وفي نفس الوقت يتطرق إلى المثقفين الفرنسيين والمترجمين والمستشرقين، كما يتنـــاول المســـلمين الجزائريين ذوي الثقافة الفرنسية ومزدوجي الثقافة. وإنّ أسلوبه الموســـوعي –

بشمولية مطلقة العنان وتجزئة دقيقة حسب المواضيع في وقت واحد –يقدم بديلاً من الدراسة الأحادية، وهي الطابع العلمي الغربي الذي طغى على كتابة تاريخ الجزائر في الفترة التي تلت الاحتلال [5]، فيدخل هذا الكتاب في الحسبان التحري عن شخصيات وأحداث وموضوعات لم يتفطن لها علماء تُوَجِّههم الاهتمامات النظرية الضيقة الأفق [6].

ويتمثل الهدف العاجل لكتاب **"تاريخ الجزائر الثقافي"** في استحداث مرجع علمي، ولكنه من العسير فصل هذه المهمة العلمية عن قضايا أوسع. ويصدر هذا الكتاب –الذي هو نتاج الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين– في الوقت الذي أصبح جليا أنّ الجزائريين لا يستطيعون الاكتفاء بالانغلاق ببساطة في تقاليدهم العربية الإسلامية، وأنه لا مناص للجزائر من الارتباط بمجتمع عالمي أوسع. ففي هذين العقدين، وجد كثير من الجزائريين – ذوي التوجهين العلماني والإسلامي كليهما –أنه قُدِّر لهم أن يعيشوا وأهاليهم في أوروبا وأمريكا الشمالية لأنه طرأ أمر على هوية هذه المجتمعات وهو اقتناعها بإمكانية إجراء حوار بين الثقافتين الإسلامية والغربية وبأنّ الجزائريين يضطلعون بدور هام ريادي في هذا الحوار بفضل مواجهتهم للغرب الطويلة والعنيفة. وفي هذه البيئة الحالية يُعدُّ البحث في التفاعلات الثقافية في العهد الاستعماري أمراً مناسباً.

ثانياً، إنّ العلاقة بين الدين –وبمعنى أوسع الثقافة – والدولة ظهرت للعيان كمشكل رئيس بالنسبة للجزائر، وإنّ مناقشة متعقلة لهذا الموضوع تتطلب دراسة للعقود الثلاثة السابقة للحرب العالمية الأولى (التي تمّ الإلمام المستفيض بها في هذه المجلدات)، وهي الفترة التي كان الاهتمام بالمسلمين في صلب **السياسة**

الاستعمارية الفرنسية، فرعت السلطات الاستعمارية الحاكمة آنذاك مؤسسة إسلامية تقليدية في الجزائر، لكنها كانت هشة لأن التحالفات بين النخب الدينية والحكومات عادة ما تكون كذلك.

وإنّ كتاب سعد الله لا يقترح أي فرضية بسيطة وواضحة المعالم حول العلاقة الناشئة بين الإسلام والدولة، بل بالأحرى يقدم أمثلة يمكن أن تُستخدَم مادة قيِّمة لمناقشة هذه القضية، فكثيراً ما يبدي حماسةً عندما يناقش الباحثين الذين يتحدون التصنيف البسيط، فهم يغرون المرء على التفكير في مدى تعقيد القوى الفاعلة المشكِّلة لماضي الجزائر.

انطـلاق الصحافـة العربـيـة:

لنتطرق مثلاً إلى **جان ديرايو** [7] ابنة أستاذ في ثانوية بالجزائر العاصمة، وهي نفسها متحصلة على شهادة في اللغة العربية، أرسلها الجنرال شارل جونار [8] الحاكم العام آنذاك صحبة أبيها في بعثة إلى تونس ومصر سنة 1905، فبحثت هناك في تعليم البنات وفي المنشورات العربية. وعادت إلى الجزائر وأصدرت "**الإحياء**" [9] متأثرةً بما عاينته، وهي أول مجلة تصدر باللغة العربية في الجزائر. وقد ساهمت في صدورها شخصيات جزائرية قيادية تابعة لمؤسسة التعليم الإسلامية التي كانت ترعاها الدولة (الفرنسية). وقامت المجلة بنشر مقالات حول القلق الثقافي والسياسي الذي اكتسح العالم الإسلامي في تلك الفترة. وكان شعار "**الإحياء**" الأساسي هو أنّ سياسة الاندماج قد أخفقت وأنّ رفاهية الجزائر في المستقبل تتوقف على الانبعاث الأخلاقي والفكري المبني على أساس العادات العربية الإسلامية. وساعدت "**الإحياء**" على إنشاء مجموعة من صحف أخرى ناطقة باللغة العربية [10] قبل سنوات من الحرب العالمية

الأولى برغم أن صدورها نصف شهري تواصل أقل من عامين ونشرت تقريباً أربعة وثلاثين عدداً.

وقابل سعد الله بين **ديرايو** ومعاصرتها **إيزابيل ابرهارت** [11]، وهي شخصية أولاها الأكاديميون الغربيون اهتماماً كبيراً بسبب الانطباع حولها كمغامرة جسورة ومجربة لأساليب الحياة. فنادراً ما تظفر ديرايو بسطر يكتب عنها في أبرز الدراسات باللغة الفرنسية حول الجزائر، فإذا عدت صورتها الخَلقية دلالة قاطعة فقد كانت أنيقة ووسيمة، كما يبدو أنها كانت تنتمي –على الأقل جزئياً – إلى أسلاف أفارقة، ربما من أصول عائلة منحدرة من إحدى جزر الأنتيل التي تحتلها فرنسا. ويبدو أنّ جزءاً من هدف جونار برعاية مشروعها هو وضع بديل محافظ اجتماعياً لجريدة **الأخبار** [12]، وهي صحيفة يديرها الفرنسي المتطرف فيكتور باروكان [13]، وهو المنشئ الأول للغز ابرهارت. وسرعان ما أخفقت جهود جونار في إنشاء نوع من التركيبة الفرنسية الجزائرية في الجزائر أوائل القرن العشرين، ويعود ذلك لعدة أسباب منها أنها كانت تركيبة ثقافية استعمارية أُقيمت من القمة إلى القاعدة، عارضها منذ البداية رجال السياسة المستوطنون الفرنسيون، وأيدها مختلف الأشخاص الذين بسبب ثقافتهم أو مواقفهم بذلوا مجهودات من أجل إنشاء ما يمكن أن يُطلق عليه اليوم اسم المجتمع متعدد الثقافات، وتعطلت المجهودات أيضاً بسبب القانون الفرنسي الداعي إلى الفصل بين الدولة والدين والذي تمت المصادقة عليه سنة 1905.

ناشط مسلم بوسام استعماري:

بما أنّ التركيبة الاستعمارية (التي كوَّنها جونار) انهارت، فقد اتخذت وسائل تعبيرية إسلامية جديدة في الجزائر طابعاً أكثر شعبية وسياسية. وتمثل

مؤشر هذا التحول في شخص عباس بن حمانة الذي كان ذا أثر في إقامـــة أول مدرسة إسلامية عصرية يؤيدها المجتمع الجزائري بتبسة، وهي مدينة تقع قـــرب الحدود التونسية على بعد حوالي مائتي كيلو متر جنوب البحر المتوسط. وكانت تبسة في موقع منعزل ولكن برغم ذلك كانت معرضـــة إلى تيـــارات جديـــدة تزحف من تونس وطرابلس.

ويُعدُّ ابن حمانة من عدة جوانب التابع النموذجي للاستعمار، فقد قلَّده الفرنسيون وساماً بسبب حماسته المفرطة كمقاول زراعي. ولكن عنـــدما غـــزا الإيطاليون ليبيا سنة 1911 أصبح ابن حمانة –مثل كـــثير مـــن الانـــدماجيين الجزائريين– النصير المتحمس للثوار، فراسل قائد الثوار الطرابلســـيين ســـليمان الباروني.

و لم يلبث ابن حمانة بعد ذلك أن وقع في شرك نزاع حـــول السياســـة المحلية بتبسة، فتعرض لغضب رئيس البلدية الفرنسي الـــذي أَلْـــــقى بـــه في السجن، ولكنه بدأ تحالفاً جديداً مع شارل ميشال المهندس المعين بتبسة للعمـــل بمناجم الفسفاط القريبة من هناك، وكان عضواً في جمعية الدفاع عـــن حقـــوق الإنسان. وبفضل تلك العلاقة، استطاعت قضية ابن حمانة الوصول إلى مجلـــس النواب بباريس حيث برأت ذمته سنة 1913، وما لبث أن قُتل في العام المـــوالي نتيجةً –حسب ما يبدو– لثأر متصل بالسياسة المحلية.

وبينما كانت سيرة ابن حمانة غامضة إلا أنها يمكن أن تُعدّ كنمـــوذج صغير للموضوعات التي استمرت تثقل كاهل الحياة السياسية الجزائرية، مثـــل ارتباطها بالقضايا الإسلامية العالمية والقضايا المناهضة للإمبرياليـــة، ونشـــاطات الدفاع عن حقوق الإنسان، والإسلام كعامل للتعبئة الشعبية، والعنف المتفشـــي

بين الفصائل الذي ربما كان بتأثير من السلطات العاليا ولكن بحركيتها الذاتيـــة وبجهود تسعى إلى تقويض الخطط الهادفة إلى إقامة هيئة سياسة دائمة.

مصـــــلح فـــــي زاويـــــــة:

توجد شخصية أخرى معقدة شدَّت انتباه سعد الله تتمثل في عبد العزيز بن الهاشمي بن إبراهيم الذي كان يدير محفل القادرية الصوفية أو الزاوية في مجتمع الواحة بالوادي، فقد أرسله أبوه للدراسة بجامعة الزيتونة الإسلامية بتونس حيث استوعب الانتقادات السلفية للصوفية، ثم انضم سنة 1937 إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كانت تتبنى التعليم الإسلامي العصري بتوجه سلفي متشدِّد. وبعد ذلك فتح مدرسة برعاية هذه الجمعية في مأوى العائلة بالوادي. ولم تمض إلا فترة قصيرة بعد ذلك حتى سقط ضحية لتلاعبات الصراعات المحلية والتوترات العالمية، فاتُّهم بتأييد المؤامرة الألمانية الإيطالية وحُبس بسجن الكدية الذائع الصيت بمدينة قسنطينة [14].

مـــن الـــوادي إلـــى مينيـــا بـــولـــيـــس:

إنّ القصة تتعلق بالأستاذ سعد الله شخصياً لأنه كان يترعرع في الوادي عندما وقعت الأحداث السالفة الذكر. ولقد واصل دراسته بمساعدة جمعية العلماء في أول الأمر بتونس، ثمّ بالقاهرة [15]. واتخذ مساره التعليمي منحى جديداً سنة 1962 عندما التحق بجامعة منيسوتا بعد حصوله على منحة فولبرايت لتحضير شهادة الدكتوراه في التاريخ. وبعد ثلاثة عقود تقريباً راح ينجز معظم بحثه بالحجم الحالي في الأروقة الهادئة لمكتبة جامعة منيسوتا بمساهمة هيئة الإعارة المتبادلة بين المكتبات التي ساعدته على تجميع بعض أجزاء تاريخ الجزائر الثقافي المبعثرة التي ساقتها رياح اليُمْن إلى أمريكا الشمالية.

الهوامش:

(1) استعمل الأستاذ أبو القاسم سعد الله مصطلح "النكبة" عندما تطرق إلى هذه الحادثة في مقدمة الجزء الثالث من كتاب: تاريخ الجزائر الثقافي.

(2) مفرد الكلمة: غليون.

(3) Organisation Armée Secrète (OAS)

(4) تمّ إحراق المكتبة الجامعية.

(5) وهي الطريقة المقتصرة على النظرة الاستعمارية لاحتلال الجزائر المتمثلة في كتابة تاريخ الجزائر بأقلام وأفكار فرنسية.

(6) هو ادِّعاء المؤرخين الفرنسيين انتهاج الطرائق الموضوعية والمنطقية في معالجة قضايا حساسة من تاريخ الجزائر، وخاصة الجانب الثقافي منه.

(7) Janne DESRAYAUX

(8) Charles JONNART

(9) جريدة **الاحياء** تصدر مرتين في الشهر في مدينة الجزائر ابتداء من سنة 1907، ويسيرها المستشرق لويس بوداي (Louis BOUDET) وتطبع في المطبعة الشرقية لفونتانا.

(10) الصحف الناطقة بالعربية، مثل: كوكب إفريقيا، الجزائر، ذو الفقار، الفاروق، الساجي، البريد الجزائري، الفضيلة، الروح, وغيرها.

(11) Isabelle EBERHART

(12) جريدة **الأخبار** هي أقدم الجرائد في الجزائر أسست في 12 جويلية سنة 1839، فكانت أسبوعية وصدرت مرتين في الأسبوع ثم ثلاث مرات في الأسبوع وأخيراً يومياً. وتوقفت عن الصدور سنة 1897 واندمجت في جريدة **التلغراف الجزائري** (Télégramme Algerien)، وكانت تمثل الحزب الجوهوري الراديكالي.

(13) Victor BARRUCAND

(14) سُجِن رفقة الشيوخ المعلمون بالزاوية: علي بن سعد حيران وعبد القادر الياجوري والسيد عبد الكامل سنة 1938.

(15) حول السيرة الذاتية **للأستاذ أبي القاسم سعد الله**، ينظر: أبو القاسم سعد الله، أفكار جامحة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص ص: 177-179.

-دراسات وشهادات، مهداة إلى الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، عمل على جمعها وإخراجها ناصر الدين سعيدوني، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2000.